محاضرة فلسفة سبينوزا

يعتبر سبينوزا من الفلاسفة القلائل الذين فضلوا الفلسفة على الرفعة الاجتماعية ومناصب العالية والأمور المادية ، وسعى الى فلسفة حقيقية حتى لا تصبح مطية يستعملها رجال الدين يكرسون من خلالها الخرافات والأساطير وهذا بهدف نشر سمومهم وأد الفكر الحر ،الفلسفة المنشودة لسبينوزا هي التي تبتعد ولا تنساق مع الخطاب الديني الكهنوتي بل على العكس يجب ان تفضحه وتكشف أساليبه من أجل تكميم الأفواه وتظليل العقول.

يعتبر المشروع الفلسفي لسبينوزا مشروعا للحرية ومنظّر لمجتمع مدني حر ،فإلى أي مدى أستطاع سبينوزا تأسيس فلسفة نوعية تعمل على توعية العقول وتنويرها للتخلص من سطوة رجال الدين وتظليلهم ، وخلق فلسفة تنويرية تنير طريق الأفراد لتحقيق مجتمع راقي مستنير ؟

سيرته

ولد بيندكتيوس دي سبينوزا في أمستردام عام 1632 من أسرة يهودية، هربا من البرتغال، فتلقى اللغة العبرية والتوراة والتلمود والفلسفة اليهودية ،حضرته عائلته ليكون حاخاما ،غير أنه بدل رأيه ودخل الشك قلبه اتجاه الدين ،فانكب نحو العلوم الإنسانية ،احتك بجماعة بروتستانت ، تعرف من خلالهم على طبيب كان ذا اطلاع واسع في مختلف العلوم فأخذ عنه علم الهندسة وكذا علوم الطبيعة وفلسفة ديكارت ،قرأ فيما بعد لكثير من فلاسفة ومفكري عصره أمثال جيوردانو برونو ،الأمر الذي خلق هوة كبيرة بينه وبين اليهودية ،مما زاد من تعصب و اقصاء طائفته نحو ،فابتعد عنهم وعمل بصقل زجاج النظارات ،رافضا جميع الروض التي قدمت له حتى يبقى حرا .

و توفي في لاهاي عام 1677 بمرض رئوي.

أهم أعماله :

- أول ما كتب كان سنة1660 « رسالة في مبادئ فلسفة ديكارت مبرهنة على الطريقة الهندسية» كتمهيد ومدخل لفلسفته الخاصة.
- وفي نفس السنة كتب «الرسالة الموجزة في الله والإنسان وسعادته» كتبها لأصدقائه المسيحيين ولم تنشر، وقد ضاع الأصل وبقيت ترجمتان هولانديتان نشرتا سنة 1852.

- وكتب رسالة «في إصلاح العقل» هي بمثابة مقدمة في المنهج وفي قيمة المعرفة، لكنها لم تكتمل وبقيت ناقصة.
- وكتب «الرسالة اللاهوتية السياسية» نشرت سنة 1670.
- وألف كتابه الأكبر «الأخلاق» ولكن لم ينشر إلا بعد وفاته .
- ألف «الرسالة السياسية» في أواخر حياته ولم تكتمل ونشرت هكذا.

فلسفة سبينوزا

تأثر سبينوزا بالفلسفة منذ شبابه ، ففضلها على باقي العلوم ، وكان اول ما أعجب به هو فلسفة برونو ،كما اعجب بفلسفة ديكارت فانكب عليها بالدراسة و القراءة، وخاصة فيما يتعلق بتقسيم الكون إلى قسمين: قسم مادي متحد في الجوهر وقسم روحي متجانس في جوهره.

مفهوم الجوهر

إن فلسفة سبينوزا هي قراءة تجديديةو تطويرية في غاية الأهمية لمفهوم الجوهر، في علاقته طبعا الجدلية بفلسفة الوجود، فهو يبين مطلق متغير، وأزلي وكلي، فنقول جوهر الوجود، في تصور سبينوزا، هو الطبيعة المتفاعلة مع الله والإنسان، إلى درجة الذوبان والتماهي. وبين مفهوم المبدأ، باعتباره أصل مجرد عميق، فنقول أصل الوجود، وهو ما يقصده هيراقليطس في فكرة النار كأصل للوجود ، وهي القانون الطبيعي الكلي، والمسيطر على تفاعلات الطبيعة والوجود وحياة الإنسان.

لقد كان للقراءات والدراسات النقدية حول الميراث الديني المسيحي والمتمثل في فكر القديس طوما الأكويني ،وكذلك ميراث الديني اليهودي المتمثل في فكر موسى بن ميمون، كما انه تعمق كذلك كثيرا في دراسة الفلسفة الإسلامية، خاصة فلسفة ابن سيناء في النفس، و فلسفة ابن رشد القرطبي حول المسألة الدينية.

وعليه ففلسفة سبينوزا حول الجوهر كانت تحمل علاقة جدلية تجمع بين كلية نسقه المعرفي والعلمي والفلسفي، في إطار وحدة وجودية، تقوم على أساس التعدد والاختلاف والحركية و الصيرورة، وهو الأمر الذي لم ينجح فيه الفيلسوف الفرنسي ديكارت، حول فلسفته النقدية الأخلاقية، ،ولعل هذا ما جعل الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز، يتأثر كثيرا بفلسفة سبينوزا .

الله عند سبينوزا

.يرى سبينوزا أن كلمة (الله) يقصد بها القانون الثابت الغير قابل للتبدل أو الفناء، تلك القوة الفعالة التي تنظم الكون وتباشر ترتيب ما يطرأ من أحداث على المادة التي تملأ جوانب الكون ،فغياب هذه القوة للقوانين العامة المسيرة للعالم، ينتج عنه انهيار الكون و نظامه .

يرى سبينوزا أن للكون حقيقة واحدة خالدة، هي عبارة عن قانون عام شامل لا ينقص ولا يزيد. هذه الحقيقة الخالدة، أو هذا القانون الشامل، لا يمكن أن يعبر عن نفسه ويفصح عن حقيقته إلاّ بواسطة الأجسام المادية.

الاخلاق والسياسة عند سبينوزا

تقوم فلسفة سبينوزا حول مفهوم السياسة على أن الإنسان في البداية كانت حياته منفردة وليست جماعية، فلا يرتبط مع غيره نظام، و الحق عنده هو ما يستولي عليه بالقوة، يرى سبينوزا أن الإنسان الأول لم يكن يدرك معنى الخير والشر ، إذ أطلقتا على بعض الأعمال التي تعود عليها الأفراد، والإنسان كان يتصرف حسب ما تملي عليه شهوته، وبالتالي هو كان مسئولا عن تصرفاته إلا أمام نفسه فقط ، وبظهور الحياة المدنية تم الاتفاق على تحديد الخير والشر، ويصبح كل إنسان مسئولا عن ذلك أمام هيئة معترف بها هي الدولة وأنت تستطيع أن تتمثل الحياة الطبيعية الأولى التي لم تكن تفرق بين الخير والشر،فاجتماع الناس في تصوره ليس طبيعيا لكن كان للضرورة و هي درأ حالة الخطر و الضرورة للاتحاد و التجمع للحماية من المخاطر، وحتى يتمكن من أن يعيش بشكل أفضل في سعادة وطمأنينة مع الآخرين ، ويتحول بذلك المجتمع الطبيعي إلى مجتمع سياسي دون أن تتحكم بهذا المسار غاية موجهة . ويستمر سبينوزا في نهج " فلسفة الرفض " ، ويقول في رسالة في السياسة : " إن الناس لا يولدون بتاتا وهم أعضاء في المجتمع ولكنهم يُهَيَّؤون للعب هذا الدور " [1] ،ومن هنا نجده يتجاوز فرضية " الاجتماع الطبيعي " ، ويفتح المجال للتاريخ ليرسم لنا معالم علم السياسة . لكن سبينوزا لا يجعل " الاتفاق " عوض " الاجتماع الطبيعي " كما يفعل " هوبز " في " اللفياثان " ، وأن العنف سلوك ملازم للطبيعة البشرية والحالة الطبيعية قبل أن يقرر الناس الانتقال إلى الاجتماع والحياة السياسية .هذا الإفتراض لم يرضى عنه سبينوزا ،فقد اختار طرحا آخر

1– باروخ دو سبينوزا ، رسالة في السياسة ، ترجمة وتقديم عمر مهيبل ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، د. ط 1995 ، ص 68.

للمسألة السياسية ومشكلة الروابط الاجتماعية يقول :" تسألوني عن الاختلاف بيني وبين هوبز بالنسبة للسياسة : الاختلاف الأساسي يتمثل في أني أتمسك دائما بالحق الطبيعي ، وأني لا أخول للحاكم أي حق على الأفراد داخل الدولة إلا في حدود ما تسمح به قوته ...إنها استمرارية الحالة الطبيعية "[1].

فالممارسة السياسية لا تسعى إلى امتلاك معرفة يقينية ثابتة بل إلى فهم الواقع واحتواءه وليس القفز عليه .وتحولت بذلك الدولة المدنية الى الأداة التي يُحَصِّنُ من خلالها الأفراد قوتهم ونجاعتهم العملية ويحضون بمجال يمارسون فيه إنسانيتهم . ولعل هذا ما أكده أرسطو في كتابه من علم الأخلاق إلى نيكوماخ حين قال :" لا يمكن أن يحقق الإنسان طبيعته كإنسان إلا في الدولة المدنية " [2]، ليصرح سبينوزا في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة " أن الغاية من قيام الدولة هي الحرية " [3] .

فإن الدولة التي في ذهن سبينوزا هي الدولة التي تستمد قوانينها من الطبيعة الانسانية ومن واقع الانسان. ثم إن التربية السياسية الناجحة تتمثل حسبه في أن يتعلم الفرد بواسطة الدولة أن يكون مواطنا، إذ أن المواطنة هي أن يمتلك الأفراد كامل حقوقهم الطبيعية ،وأن يتمتعوا بها دون نقصان ، وأن لا يطيعوا إلا القوانين التي تمكنهم من ذلك . ثم إن المواطن بهذا المعنى ليس إلا ضمير السلطة السياسية وعينها التي لا تنام ، وأن التربية السياسية ليست إلا الجاهزية الدائمة لدى الشعب لتغيير أي نظام ينحرف عن هذه الغايات والأهداف والمساعي التي وجدت من أجلها الدولة. فالمواطن الذي يُمْنَحُ الوسائل التي بها يدعم حقه الطبيعي في الحرية يكون مواطنا كاملا. يقول سبينوزا في هذا الصدد :" فإذا لم يكن من الممكن أن يتخلى أحد عن حريته في الرأي وفي التفكير كما يشاء ، وإذا كان كل فرد شيد تفكيره على حق طبيعي أسمى ، فإن أية محاولة لإرغام أناس دوي أراء مختلفة بل ومتعارضة ، على ألا يقولوا إلا ما تُقَرِّرُهُ السلطة العليا، تؤدي إلى أوخم العواقب." [4]

---

1 – Baruch de Spinoza , Les correspondances , Œuvres complètes , Texte nouvellement traduit ou revu , présenté et annoté par Roland Caillois,Madeleine Francès et Robert Misrahi , Bibliothèque de la Pléiade,1° édition 1955,Paris-France ; P1199.

2 فرانسيس وولف ، أرسطو والسياسة ، ترجمة : أسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1994 ، ص 21.

3 باروخ دو سبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة ، ترجمة وتقديم حسن حنفي ، مراجعة فؤاد زكريا ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 2005 ، ص 437.

4 باروخ دو سبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة ، المصدر نفسه ، ص 436.

استطاع سبينوزا أن يقدم لنا فلسفة عملية تحرر الانسان من المفاجآت واللامتوقع الذي يشعل قدرة الانسان على الفهم والمعرفة، وذلك برد الكثرة والتنوع إلى الوحدة، والشتات إلى الضرورة، ويرى أن مبدأ وحدة الكل هو "الله" أو "الطبيعة"، وفلسفة سبينوزا الوجودية ترى أن الانسان داخل هذا العالم لا يتأسس وجوده على السلب أو الانسحاب، بل على العكس يتجسد في وعي العالم والضرورة التي تحكمه، وعليه فإن الفرد لا ينفي وجوده أو ينسحب منه بل يندمج فيه بشكل يجعل منها متضمنة في الكل تحركه كما يحركها. إن العلاقة بين الذات والذوات الأخرى ليست جدلية بمعنى التعارض والتناقض، بل بمعنى الاختلاف والتمايز الذي يطبع كل موجود والذي يحول الموجودات إلى عناصر تتجاذب وتتحرك في انسجام وتعاون.

قائمة المصادر و المراجع:

المصادر باللغة العربية:

– باروخ سبينوزا ، علم الأخلاق ، ترجمة : جلال الدين سعيد ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، دون طبعة ، دون تاريخ.

– باروخ سبينوزا ، رسالة في إصلاح العقل ، ترجمة : جلال الدين سعيد ، دار الجنوب للنشر تونس دون طبعة ، دون تاريخ ،

– باروخ دو سبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة ، ترجمة وتقديم حسن حنفي ، مراجعة فؤاد زكريا ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 2005.

– باروخ دو سبينوزا ، رسالة في السياسة ، ترجمة وتقديم عمر مهيبل ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، د. ط 1995.

المصادر باللغة الأجنبية:

– Baruch de Spinoza , Les correspondances , Œuvres complètes , Texte nouvellement traduit ou revu , présenté et annoté par Roland -Caillois,Madeleine Francès et Robert Misrahi , Bibliothèque de la Pléiade,1° édition 1955,Paris-France

المراجع باللغة العربية :

– جيل دولوز – فليكس غتاري ، ما هي الفلسفة ، ترجمة ومراجعة وتقديم : مطاع صفدي ، مركز الانماء القومي ، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى 1997.

– إتيان باليبار، سبينوزا والسياسة ، ترجمة منصور القاضي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1993 .

– هاشم صالح ، مدخل الى التنوير ، دار الطليعة للطباعة والنشر ورابطة العقلانيين العرب ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى سبتمبر 2005.